الوقف الإسلامي أقام حضارة إنسانية

س: تحدثنا عن أثر الوقف في الحضارة الإسلامية الزاهرة من جوانبها العلمية والفنية والصناعية، ألا ترى أن للوقف ملامح إنسانية تستحق أن نقف عندها؟

ج: بعد حمد الله تعالى والصلاة والسلام على رسوله الكريم.

الحضارة الإسلامية لحمتها وسداها الإنسانية، التي نلحظها واضحة في نظام الوقف الإسلامي، الذي أقامها ورفدها في مسيرتها الطويلة، ولو تأملنا الجهات التي وقف عليها سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أول وقفية موثقة في الإسلام، ومشهرة بالإشهاد عليها، لو تأملنا هذه الجهات، لرأينا الجانب الإنساني هو الهدف والغاية منها، حيث يقول الراوي رضي الله تعالى عنه محدداً الجهات التي لها حق الاستفادة من وقفية سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فتصدق بها عمر في الفقراء وفي القربي وفي الرقاب وفي سبيل الله وابن السبيل والضيف، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف أو يطعم ضيفاً غير متمول.

فالمستحقون في هذه الوقفية أفراد قد ضاقت بهم الحال ويستحقون أن يرفع عن كاهلهم عبء ما هم فيه، إذ هم يمرون بظروف يحتاجون فيها إلى من يأخذ بيدهم، ويحفظ لهم إنسانيتهم، ويراعى جانب الضعف فيهم، فالفقير ضعيف وابن السبيل ضعيف، والرقيق ضعيف، فالوقفية العمرية تراعى الجوانب الإنسانية عندما تحفظ لهؤلاء إنسانيتهم ولا تعرضهم لذل أو مهانة.

س: أين يكمن الجانب الإنساني في الوقف على دور العلم والمستشفيات وهي التي حظيت بقدر وافر من أوقاف المسلمين؟

ج: كما قلنا الوقف يحاول أن يجبر الضعف عند الشخص الضعيف، ولا شك أن الجهل ضعف والعلم قوة، والمرض ضعف والصحة قوة، ومن هنا تأتي مراعاة إنسانية الإنسان عندما نقف معه لننقله من الجهل إلى العلم ومن المرض إلى الصحة. ولابد أن نشير إلى أن الأوقاف على المستشفيات ودور العلم، كانت تخدم كل الناس، الأغنياء والفقراء، فدور العلم مفتوحة للجميع والمكتبات متاحة للجميع لا فرق بين غنى وفقير وكذلك المستشفيات كانت مفتوحة للجميع الفقراء والأغنياء على السواء، مما يؤكد أن المقصود هو مراعاة إنسانية الإنسان في حد ذاتها، والعمل على نقله من الضعف إلى القوة سواء في ذلك الوقف على دور العلم أم الوقف على المستشفيات، وربما يؤكد هذه الحقيقة أن مؤسسة الأوقاف في مجال الرعاية الصحية، لم تقتصر على علاج المترددين على المستشفيات، وإنما تعداها ليشمل علاج المرضى الفقراء في بيوتهم، حيث نصت بعض وثائق الوقف على المستشفيات على علاج الناس في مساكنهم، حيث وصل عدد من يعالجون في بيوتهم من قبل إحدى المستشفيات الوقفية في مدينة القاهرة سنة ٦٨٣هـ أكثر من مائتي مريض أما المراجعون في العيادة الخارجية فقد وصل عددهم إلى أربعة آلاف شخص في اليوم. وكان من بين خدمات المستشفي مما يتصل بأمر المرضى هو تجهيز الأموات وتكفينهم ودفنهم على نفقة الأوقاف.

ومن ثم يتضح لنا الجانب الإنساني في الوقف الإسلامي الذي يعلم الناس ويعالج مرضاهم ويقدم لهم هذه الخدمات مجاناً وللجميع بدون تفرقه بين الناس، بلداً أو جنساً أو ديانة.

س: لقد سمعنا عن أوقاف ذات طابع إنساني بلغ غاية العجب، مثل الوقف على الأواني والوقف على تشجيع المريض، هل تتفضل بتوضيح هذا الجانب؟

جـ: عرفت الحضارة الإسلامية أنواعاً من الأوقاف دلت على الرحمة البالغة والإنسانية الكاملة التي كانت عند هؤلاء الواقفين، والذي أشرت إليه يمثل هذا النوع من الأوقاف. فوقف الأواني، كان يقصد منه عدم إيصال الأذى أو حتى مجرد التعنيف للخادم الذي يخرج بآنية ليشترى فيها شيئاً، ثم تكسر منه، فبدلاً من أن يرجع إلى البيت مكسور الخاطر، يذهب إلى ناظر الوقف ويستبدل أجزاء آنيته المكسورة بمثلها سليمة. وهنا لا يتعرض للتعنيف أو المساءلة عن الآنية التي كسرها، فأية إنسانية هذه وأية رحمة بالضعيف كانت عند الواقفين؟

والمثال الثاني الذي ذكرته كان يتمثل في أن الوقف يوفر أشخاصاً يقفون بالقرب من المريض على أنهم من العاملين بالمستشفى ويسأل أحدهم صاحبه: ماذا قال الطبيب عن هذا المريض؟ فيجيبه إنه قال إنه بخير، وعمَّا قريب يسترد صحته وسيتعافى من مرضه، والهدف من ذلك رفع الروح المعنوية للمريض، حتى يقاوم مرضه ويتغلب عليه.

بل لقد تجاوزت هذه الرحمة الإنسان إلى الحيوان، وكان من أوقاف المسلمين وقف بدمشق في منطقة الغوطة الحالية، أرض موقوفة على الخيول التي هرمت ولم تعد قادرة على العمل، فتدخل في هذا الوقف، ترعى وتعلف حتى يوافيها أجلها. فإلى هذا الحد بلغت الرحمة بالإنسان وتجاوزته إلى الرحمة بالحيوان، وليس ذلك غريباً في ظل الإسلام الذي يعلمنا رسوله صلوات الله عليه أن من يسقى كلباً يدخل الجنة ومن

يحبس هرة يدخل النار، فيقول الصحابة رضوان الله عليهم، وإن لنا في البهائم لأجراً فيقول صلوات الله وسلامه عليه: «**فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ**». ففي ظل هذا الهدي ليس غريباً أن يوقف المسلمون أوقافاً على الحيوان وعلى الطير في المسجد الحرام ناهيك عن الوقف على بني الإنسان، لتعليم الجاهل وتطبيب المريض ورعاية الأسير، وإطعام الفقير وابن السبيل.

إنها الحضارة الإنسانية التي أقامها الدين الإسلامي دين الرحمة بكل الكائنات.

والله الموفق